خطبة صلاة الجمعة 22/ 11/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(سَفَر الدعوة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 – 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة: هذه هي الخطبة الرابعة في سلسلة علمتني السيرة النبوية، أعرض لكم فيها مختارات من السيرة العطرة وأقطِف من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا؛ لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبة، ولنجتهد به اقتداء ولنكثر عليه صلاة، صلوات ربي وسلامه عليه.

كان عنوان الخطبة الأولى: بدء الوحي، والثانية: بدء الدعوة والثالثة: جهاد الدعوة.

وعنوان خطبة اليوم: **سَفَر الدعوة**.

أيها الإخوة:

لما اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه كيدُ قريش وأذاها دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه إلى السفر إلى مكان يأمنون فيه على دينهم وينشرون فيه دعوة ربهم، فكانت هجرة الحبشة الأولى ثم الثانية، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وكانت فيما بعد الهجرة إلى المدينة. وسافرت رسلُه إلى الملوك تضرب في الأرض شرقاً وغرباً يبلغون رسالة ربهم.

إنه سفر الدعوة.

قال النبي الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**» [فتح الباري وسيرة ابن هشام]، وسافر أحد عشر رجلاً وأربعُ نسوة من المسلمين في هجرة الحبشة الأولى وكان أميرَهم سيدُنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وسافر في هجرة الحبشة الثانية ثلاثةٌ وثمانون رجلاً وسبعَ عشْرة امرأة، أميرهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، واستطاع مسافرو الدعوة أن يأمنوا على أنفسهم وأن يبلّغوا رسالة ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة؛ الأمر الذي أثمر إسلامَ عدد من أهل الحبشة ومن رهبانها، بل لقد أسلم النجاشي ملكُ الحبشة نفسُه وولده.

واستطاع المهاجرون أن يقنعوا أعداداً من أهل الحبشة بالسفر إلى مكة ليجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويسمعوا منه.

روى ابن إسحاق في سيرته: (قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريبا من ذلك من النصارى حين ظهر خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه فكلموه وسألوه، ... فلما فرَغوا من مسألتهم، دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره...).

وفي رواية ثانية: (بعث النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر رجلاً يسألونه ويأتونه بخبره، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، فبكوا وكان فيهم سبعة رهبان وخمسة قسيسين، ففيهم أنزل الله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83]، وقد سأل ابن اسحق الإمام الزهري عن هذه الآية؟ فقال: ما زلت أسمع علماءنا يقولون نزلت في النجاشي وأصحابه.

نعم، لقد نجح مسافرو الدعوة في عرض الإسلام على من جالسوه وخالطوه، وحسبي أن تذكروا جواب سيدنا جعفر بن أبي طالب للنجاشي عندما دعاه ليسمع منه بعد أن حاولت قريش تأليبه على المسلمين المهاجرين إليه، قال جعفر – كما في مسند أحمد-: "أيها الملك، كنا قوماً أهلَ جاهلية، نعبدُ الأصنام، ونأكل الميْتَة، ونأتي الفواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيفَ، فكنَّا على ذلك حتى بعث الله إلينَا رِسولاً منا، نعرف نسبه وصدقَه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله، لنوحّدَه ونعبده ونخلعَ ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارمِ والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزّور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قال: فعدَّد عليه أمورَ الإسلام، فصدَّقناه وآمنَّا، واتّبعناه على ما جاء به، فعبدْنا الله وحده فلم نُشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أَحَلَّ لنا، فعَدا علينا قومُنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليرُدُّونا إلى عبادة الأوثان منِ عبادة الله، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقُّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجوْنا أن لا نُظلم عندك أيها الملك، فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله منْ شيء؟ فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عَلي، فقرأ عليه صَدْراً من ﴿كهيعص﴾ [مريم: 1] فبكى النجاشيُّ حتى أخْضَلَ لحيته، وبكتْ أساقفته حتى أَخْضَلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلاَ عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى لَيَخرُج من مشكاة واحدة. اذهبوا فأنتم الآمنون بأرضي، من سبَّكم غُرِّم، من سبَّكم غُرِّم، من سبَّكم غُرِّم.

إنّه حُسنُ بيانٍ للدين مع أدبٍ وحكمةٍ وموعظةٍ حسنةٍ.

وهذا عن الصحابة الكرام أما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خرج إلى الطائف لدعوة ثقيف ولعله يجد عندهم مَنعَة، فأقام فيهم عشرة أيام لا يَدَع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه وتلا

عليه القرآن، ولكنهم ردوه رداً قبيحاً، وأغروا به صبيانهم فقذفوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الطاهرتين.

وتوفي في ذلك العام السنةِ العاشرة للبعثة أبو طالب وخديجة رضي الله عنها، ففَقَدَ بموتهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المعينَ داخل بيته وخارجَه وسمّى أهل السِيَر ذلك العام بعام الحزن، فلما ضاقت الأرض برسول الله صلى الله عليه وسلم انفرجت له السماء؛ فأكرمه الله تعالى بمعجزة الإسراء والمعراج، ليصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزلة لم يصلها نبي مرسل ولا مَلَكٌ مقرَّب، وليعود من تلك الرحلة العُلوية القدسية بهمة أكبر للدعوة إلى الله تعالى، فيعرضُ صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل والأفراد والوفود يسألهم الإيمانَ والنصرةَ في عشرات المحاولات من دون نتيجة تُذْكَر، إلى أن هيأ الله تعالى له لقاءَ عددٍ من رجالات الخزرج ليبايعوه على الإسلام والحماية وليمهدوا له صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الهجرة إلى المدينة المنورة.

أيها الإخوة:

فيما سبق من حديث سفر الدعوة دروس وفوائد يحتاجها كلٌّ منّا، وقد علمتني السيرة النبوية فيها أمرين:

أولهما: في سفرك وحضرك ادع إلى سبيل ربك.

ثانيهما: لا تحزن، فعندما تُغلق دون المسلم دروب الأرض تفتح لهم أبواب السماء.

أولاً: في سفرك وحضرك ادع إلى سبيل ربك:

أيها الإخوة:

من أكثر من مائة ألف صحابي حضروا حجة الوداع مع النبي صلى الله عليه وسلم، لم يدفن في المدينة إلا عشرة آلاف منهم، فأين ذهب الباقون؟! لقد فهموا معنى الشهادة ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، ومعنى تبليغ الرسالة «**بلغوا عني ولو آية**» [أبو داود]، ومعنى الأمر الإلهي ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125]، فسافروا في الآفاق ينشرون دعوة الله ويبلغونها للعالمين.

أكثر من ثمانين بالمئة من المسلمين اليوم ليسوا عرباً، فَمَن الذي حمل لهؤلاء الدين من مكة والمدينة وطار به إلى اندونيسيا والصين والهند وروسيا وفرنسا وبريطانيا وكندا وبروناي؟.

إنّ أجدادك قد فعلوا ذلك عندما فهموا قول الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33] فذهبوا إلى تلك البلاد هداة لدين الله وتجاراً وصناعاً وزراعاً لكي لا يكونوا عالة على خلق الله. والآن جاء دوري ودورك.

إنّ الدعوة إلى الإسلام مسؤوليتك، وسيسألكَ الله عنها يوم القيامة: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6].

يقول "السير توماس أرنولد" وهو أستاذٌ سابقٌ في جامعة لندن في كتابه الدعوة إلى الإسلام: (نجد في كتابٍ أسماءَ دعاةٍ في الهند يتضمن أسماءَ معلّمي مدارسٍ، وكتّابٍ للحكومة، وتجّارٍ، ومحرري إحدى الصُّحف، ومجلّدي كتب، وعاملٍ في مطبعة...، خصص هؤلاء أوقاتاً للدَّعوة إلى دينهم في الطُّرقات، وفي أسواق الهند العامَّة، وحتَّى المسلم الأسير يغتنم فرصاً في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأسر يدعوهم إلى الإسلام وإلى التَّوبة، ففي عهد الإمبراطور جهان جير (1605-1628م) كان هناك مسلمٌ يدعى أحمد مجدّد، سُجِن ظلماً بتهمةٍ تافهة، وخلال السَّنتين اللَّتين قضاهما في السِّجن أَدخل في الإسلام عدَّة مئات من عَبَدَة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في السِّجن نفسه).

ألا فليعلم كلُّ من سافر من المسلمين أنّه إنْ لم يكنْ مصدراً لدعوة فإنه مستهدَف لدعوة، وأنّ المأمول منه أن يحمل بين جنبيه همَّ الدعوة إلى الله، ويبذل له المستطاع ليكون كمهاجري الحبشة ويكون على خطا الحبيب صلى الله عليه وسلم في الطائف.

ثانياً: لا تحزن فعندما تُغْلَق دون المسلم دروب الأرض تفتح لهم أبواب السماء:

ففي غمرة الآلام المضنية التي عاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي لجة الصدّ وفقد المعين يفتح الله تعالى له بابَ سماواته وتستقبله ملائكتُها (مرحباً بهِ، فنعمَ المجيءُ جاءَ)، ويلتقي بالأنبياء حساً ومعنى، بآدم وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى ويوسف وإدريس وهارون صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ويُرفعُ سدرة المنتهى ويكلمه ربه جل جلاله.

ليقرأ المسلمون عامة والدعاة خاصة من هذا الدرس أن الله تعالى لا يتخلى عنهم.

وربما منعك ليعطيك، وربما قطعك ليصلك، وربما أوحشك ليؤنسك، وربما حرمك ليرحمك.

ربما منعك ما تشتهيه من إكرام الناس لك وحفاوتهم بك لتيأس من الخلق وتتعلقَ بالخالق فيعطيَك جل جلاله حفاوة وتكريماً. ومتى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء.

وربما قطعك عن الأغيار ليصلَك به، وأوحشك منهم ليؤنسَك به، وربما حرمك من شهواتك ليرحمك بتجلياته وهباته. فتذوقَ حلاوةَ قولِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: 48، 49].

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من فوائد حديث سفر الدعوة، علمتنا السيرة النبوية من خلاله أن ندعو إلى الله وننشر الخير في الأرض في السفر والحضر.

وعلمتنا السيرة النبوية أن لا نأسى ولا نحزن لأنه عندما تُغْلَق دون المسلم دروب الأرض تُفْتَح لهم أبواب السماء.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين